المرأة المسلمة

ودورها الحضاري

للأستاذ عبد العزيز بن عبدالله

- لقد صقلت الحياة الحربية نفسية المرأة فجعلت منها شاعرة بارعة، وخطيبة مفوهة، ومطببة ماهرة.

- لم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الأمصار الإسلامية إلى يومنا هذا من نساء نافسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وعفة.

- لم تكن المرأة المغربية في هذه العصور تختلف عن المرأة العربية في شجاعتها، ورباطة جأشها، لا سيما في الصحراء أو الجبال.

يعتقد المؤرخون أن جميع الأديان والأمم قبل العرب أساءت إلى المرأة. فقد كان الإغريق يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المنزل. وكان جميع قدماء المشرعين يظهرون نفس القسوة على المرأة ومن ذلك قوانين الهندوس. وكان الصينيون والروس والإيطاليون والأسبان وقبلهم الرومان يحتقرون المرأة، كما تدل على ذلك الأمثال السائرة عندهم. وتعتبر جميع الشرائع الهندوسية والإغريقية والرومانية والحديثة المرأة ـ كما يقول جوستاف لوبون ـ من فصيلة الإماء أو الصبيان.

وقد انعقد إبان البعث النبوي مؤتمر في بلاد الرومان تساءل: هل للمرأة روح؟ وأجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها تباع وتشتري، ويتصرف فيهن الرجل كيف يشاء.

وتطورت الآراء في أوربا حول المرأة حتى تبلورت خلال القرن الثامن عشر في نظريات أوجست كونت الذي هو أبعد الفلاسفة عن فكرة الطبيعة الإباحية في المرأة

فما هو الوضع الذي أعطاه هذا العالم للمرأة في فلسفته الإيجابية التي كان لها أكبر الأثر في تكييف نظريات عصره في الميدان الاجتماعي؟

يقول الفيلسوف: إن الرجل والمرأة يهدفان إلى غايات متباينة في الحياة، فمرمى الرجل هو العمل وغاية المرأة الحب والحنان، والواجب يدعو الرجل إلى قيادة نشاط الأمة بينما على المرأة الانصياع وبذل النصيحة والتأثير الأخلاقي والتهذيب، لأنها تشخص الحب وترمز إلى قوة العاطفة والقلب وتمثل روح التجانس والتقارب فقوى الجنسين متكاملة وإذا ما تنافست هذه القوى فيما بينها فإنها تتمخض عن السعادة المنزلية والوحدة العائلية.

وهذا النظام الذي يجعل المرأة خاضعة للرجل، يسند إليها مهمة رائعة في الحياة الخاصة، بينما يحظر عليها التسرب إلى الحياة العمومية، ومن هنا انبثق الاحتجاج ضد أوجست كونت الذي أخذ عليه أنصار حرية المرأة

حصرها في نطاق ضيق، ولكن «الفيلسوف الإيجابي» يرد على خصومه بأن أنافة الرجل على المرأة هو ظاهري فقط؛ لأن للمرأة تفوقاً ناصعاً على الرجل في الميدان الاجتماعي؛ لأنها مجبولة على المرونة الاجتماعية، وهي عامل المحافظة والتوازن في الهيكل الاجتماعي، وحتى في الزواج لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة؛ لأن لها حقوقاً وواجبات مختلفة: فالرجل قوام على البيت وهو الذي يعول المرأة كما يقول الفيلسوف العصري، لأن المرأة يجب أن تجرد من هموم المادة، فناموس التطور الحديث يقضي في فلسفة كونت الإيجابية بجعل الحياة النسوية منزلية يوماً عن يوم، وتجريدها أكثر ما يمكن من كل عمل خارجي لكفالة وجهتها العاطفية ويذهب هذا الفيلسوف إلى حد حرمان المرأة من الإرث بالمرة، نظراً لون التكاليف المادية منوطة بالرجال وحدهم.

ثم جاء العالم Proudhon برودهون فذكر في كتابه «العدالة» أن الرجل والمرأة غير متساويين وأنهما متكاملان، وبرهن على أن الرجل يتفوق على المرأة من ثلاث نواح: مادياً وفكرياً وأدبياً؛ فالتفوق المادي ظاهر، والتفوق الفكري راجع لعجز المرأة عن تصور النسب بين الأشياء فهي قادرة على تصور الأمور منفصلة بعضها عن بعض. ومن هنا جاء انصرافها للروحيات والشعر لا للعلوم، فللمرأة القدرة على الاحتذاء لا على الابتكار والخلق؛ لهذا لم نرها في مختلف مراحل التاريخ حققت اكتشافاً علمياً أو أسست مدرسة أدبية أو فنية. وقد ذهبت مدام جورج سان الروائية الفرنسية الشهيرة إلى حد القول بأن «المرأة بليدة بالطبع» ولا شك أن هذا الحكم الصارم الذي صدر من امرأة ضد المرأة راجع إلى الوضع الخاص الذي يجعل المرأة في نظر برود هون محرومة من «روح الجمع والتأليف»، عاجزة عن سبر غور الأشياء وإدراك الروابط الدقيقة التي تجعل من جزئيات مختلفة كُلاً متناسقاً ووحدة متراصة، فهي تفهم كل فكرة على حدة، ولكنها تتقاعس عن تصور الفكرة العامة، فالرجل أقوى فكرياً من المرأة بنسبة تسعة إلى أربعة، وخلقياً بنسبة ثلاثة إلى اثنين، ويمكن تلخيص هذه النسب والقول بأن الرجل يفوق المرأة في المجموع بنسبة سبعة وعشرين إلى ثمانية.

والمرأة تفوق الرجل في الجمال ومن

هنا تقيده وتحدوه إلى العدالة، وميزة الجمال هذه هي التي تضفي على مهمة المرأة الاجتماعية مغزاها الكامل.

والجمال هنا جسماني وفكري، لأن جثمان الرجل يتملى بجمال المرأة الظاهر بينما يتملى روحه بجمال روحها وروعة نفسيتها التي هي مرآة للرجل، فكثيراً ما تساند المرأة زوجها وتحول بينه وبين الانهيار ولا يتقبل الرجل نظام الزوجية إلا بفضل مثالية المرأة.

أما Michelet ميشلي فإنه استمد نظريته في المرأة من الثورة الفرنسية، وقد ذكر في كتابه «المرأة» أن دور هذه في الحياة هو إضفاء طابع السمو على كل شيء حولها، فهي الشعر الذي يستمد منه الرجل شجاعته كما يستروح منه الطفل مثاليته، وهي الينبوع الخلقي في العائلة، كما أن الدين هو منار الفضيلة في المجتمع، فالمرأة هي الطبيب الحق.

تلك نظريات فلسفية في المرأة كان لها طبعاً تأثير كبير في التطور النسوي في أوربا في العصر الحديث، مما جعل المرأة تتحرر في جرمانيا مثلاً بفرض ثقة كاملة في دورها الاجتماعي والتهذيبي، وكذلك في فرنسا حيث صرفت المرأة جهودها لاسترجاع مكانتها داخل المنزل ولمشاطرة الرجل في الحقل الأدبي في الكتابة والتأليف.

ولكن تطور العلوم ساعد المرأة أكثر من دعوة الفلاسفة إلى الانبثاق فخرجت المرأة في أوربا إلى معترك الحياة لتكون طبيبة ومحامية وتاجرة وممثلة.

وإذا كانت المرأة الأوربية قد تحررت داخل إطار الأعراف، فإن القوانين المتعلقة بها لم تتغير إلا قليلاً، فهي مازالت سجينة القانون لا سيما في فرنسا، حيث لا يطلق لها مثلاً كامل التصرف في مالها كما عند المرأة المسلمة منذ أكثر ما يقرب من أربعة عشر قرناً، وقد بدأت المرأة الفرنسية تتمتع ببعض الحقوق منذ ١٩٠٨.

أما المرأة العربية فقد تمتعت حتى قبل الإسلام بمركز اجتماعي لم تحظ به النساء في كثير من أقطار أوربا حتى في العصور الحديثة، وقد ذكر كوستاف لوبون أن الإسلام كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق، فقد رفع مستوى المرأة الاجتماعي خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية بأحسن مما في أكثر قوانيننا الأوربية

.. وإذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء، وجب أن ننظر إليهن أيام ازدهار حضارة العرب. فقد ظهر مما قصه المؤرخون أنه كان لها من الشأن ما اتفق لأخواتها حديثاً في أوربا. وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس(١). وقد لعبت المرأة المسلمة أدواراً في منتهى الخطورة أيام كان منها النساء العالمات والشواعر البارعات، ممن ذاع صيتهن في العصر العباسي في المشرق وفي العصر الأموي في الأندلس.

نعم إن المرأة المسلمة لم تحتفظ بهذا الوضع السامي الذي خولها الإسلام إياه مما جعل تطورها يتحجر أحياناً. وقد أشار ابن رشد إلى سوء وضع المرأة في الشرق من عدم تمكينها من إظهار قواها كأنها لم تخلق إلا للولادة، وإرضاع الطفل.

ولعل الغريب في النظريات الفلسفية هو أن ابن رشد هذا قد اعترف للمرأة بميزات سامية لم يعترف لها بها حتى أولئك الفلاسفة المحدثون الذين درسنا نظرياتهم. وذلك حين أكد في تعليقه على جمهورية أفلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع، وإنما هو اختلاف في الحكم، أي أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهن أضعف منهم في الأعمال، والدليل على ذلك مقدرتهن على القيام بجميع أعمال الرجال كالحرب والفلسفة وغيرهما، إلا أنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال.

وقد صقلت الحياة الحربية نفسية المرأة، فجعلت منها شاعرة بارعة وخطيبة مفوهة، وقد أحصيت من بين أبرع هؤلاء الشواعر نحو الثلاثين، منهن أروى بنت عبد المطلب، وأم الخير الخطيبة، وأميمة أم تأبط شراً، والحارثية المشهورة بالحماس والفخر، وحليمة الموصوفة بالحكمة، وحميدة التي كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيباً تهجوه بالشعر حتى خشى لسانها العرب، وسعدى التي تغنت بعشقها، وصفية بنت مسافر التي تلونت في أساليب البلاغة، وعمرة ذات الشعر المحكم وراوية العرب، وعمرة الخثعمية الحماسية، وفاطمة الخثعمية الحماسية، وفاطمة الخثعمية الكاهنة، وفاطمة الخزاعية التي لم يكن شعرها يخرج عن الحكم والأمثال، وناجية التي شاركت في الحروب وحرّضت على القتال.

وفي هذه المجموعة من الشواعر العربيات ألوان شتى تعطينا صورة عما

بلغته المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام من مكانة في الأدب والشعر، في أدق جوانبه وأعرق فنونه.

وعندما جاء الإسلام انفسح الميدان أمام المرأة، فشاركت الرجل في العلوم النقلية والعقلية، وطرقت أبواب الشعر وابتكرت في الغناء، وأصبحت كاتبة بارعة بينما كانت من قبل تقرض الشعر سليقة؛ ذلك أن الإسلام لم يجد عند العرب سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن منهن حفصة بنت عمر(٢).

وقد ترعرعت في أحضان الإسلام الآلاف من النساء اللواتي برعن في أصناف العلوم حتى نافسن الرجال، وفرضن وجودهن وأصبحن أستاذات لكبار علماء عصرهن، وقد ترجم ابن حجر في الإصابة لـ١٠٤٣ امرأة كان من بينهن العالمات والفقيهات واللغويات والمحدثات(٣) وخصص الإمام النووي في تهذيب الأسماء، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، والسخاوي في الضوء اللامع، حيزاً كبيراً لترجمة النساء العالمات، وقد ذكر السخاوي أن السيدة ملك سمعت معه على بعض مشايخه في القاهرة وسمع هو منها في دمشق، وقد اتهم الذهبي أربعة آلاف من المحدثين ولكنه قال عن النساء المحدثات «ما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها(٤)»، وترجم السيوطي لـ٣٧ شاعرة واقتطف نماذج رائعة من أشعارهن في كتابه المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق والموسوم بـ«نزهة الجلساء في أشعار النساء»، وتتلمذ الإمام ابن عساكر على إحدى وثمانين امرأة أخذ عنهن العلم(٥) وقد أفرد المقرى فصلاً لنساء الأندلس وأخذ هو نفسه عن الكثيرات منهن، كما تتلمذ عليهن ابن الأثير والحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام.

ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتأت لأمة أخرى أن تحظى بها في مختلف الأعصار والأمصار وقد قال عروة في عائشة الصديقية: «ما جالست أحداً قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا بطب من عائشة»، وقد وفدت الصحابية أم الدرداء على بيت المقدس وكانت تعقد حلقات التدريس فيحضرها سليمان بن عبد الملك، وأخذ الإمام الشافعي الحديث عن السيدة نفيسة وضمته حلقتها في القاهرة وقامت بالصلاة عليه بعد موته، وحكى ابن

خلكان(٦) عن نفيسة هذه أنها كانت تلقى محاضرات يجلس للإنصات إليها مشاهير العلماء، وكانت عائشة الحنبلية إحدى أستاذات ابن حجر العسقلاني في الحديث، وقد تتلمذ ابن حجر لزينب بنت محمد بن عثمان الدمشقية المحدثة الفقيهة، وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالباً للحديث، كما تتلمذ ابن حجر أيضاً لزينب بنت عثمان بن محمد، التي كانت لها اليد الطولى في علوم السنة، ولها رسائل في الفقه والحديث، استند عليها كثير من العلماء، وفي نفس العصر كانت فاطمة بنت المهدي زوجة لأحد العلماء وكان زوجها يرجع إليها فيما يشكل عليه، فإذا ضايقه الطلبة استشارها، وقد درس ابن خلكان على أم المؤيد، وأخذت هي عن الزمخشري صاحب الكشاف، وذكر ابن العماد الحنبلي في شذراته عن أم الخير وتخصصها في علم الحديث «أن أهل الأرض نزلوا درجة في العلم بموتها»، وقد تتلمذ على عنيدة خمسمائة رجل وامرأة(٧) ، وقرأ الخطيب البغدادي صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزي التي أسهمت بنصيب كبير في تكوينه(٨) وهي حافظة من رواة البخاري(٩) ، وقد حدثت رقية حفيدة ابن مزرع بالإجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس والمزي، وألقت محاضرات في المدينة وهي من مشاهير المحدثين، وقد برعت عائشة بنت على الدمشقية في النحو والصرف والبيان والعروض والحديث وفتحت حلقة للتدريس، وكانت عائشة المقدسية (من حفدة ابن قدامة المقدسي) سيدة المحدثين بدمشق، سمعت البخاري على الحجار، وروى عنها ابن حجر وقرأ عليها كتباً عديدة، وانفردت في آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة في تعليم العلوم لينة الجانب للتعليم، وقد فاقت العروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون هذا الأخير في النحو واللغة والعروض وكانت تحفظ كامل المبرد، ونوادر القالي وتشرحها، وكانت فاطمة بنت الشيخ جمال الدين الدمشقي من المحدثات، أجازها معظم علماء القرن السابع في الشام والعراق والحجاز وفارس، والفقيهة فاطمة السمرقندية زوجة علاء الدين القاشاني ألفت المؤلفات العديدة في الفقه والحديث وانتشرت مصنفاتها بين العلماء، وبلغت شهدة الدينورية بين علماء القرن الثاني عشر منزلة في إسناد

الحديث لم يبلغها أحد حتى لقبت بمسندة العراق ولها رسائل عديدة في الحديث والفقه والتوحيد، ولبني الأندلسية العالمة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم، وقد تولت عالمة زمانها فاطمة بنت قمريزا، المتوفاة عام ٩٦٦ مشيخة مدرسة الزجاجية ومدرسة العادية وانتهت إليها الرياسة بحلب.

أما الشواعر والأديبات والكاتبات اللواتي نبغن في الإسلام، فهن كثيرات جداً منهن حسب حروف الهجاء: أسماء العامرية التي مدحت عبد المؤمن بن علي في قصيدة طلبت منه فيها رفع الضريبة عن دارها والحجر على أموالها، وأم العلاء الحجارية التي لها قصائد وموشحات ذكرها صاحب المغرب، وأم الكرام ابنة المعتصم صاحبة الموشحات، وأمة العزيز الأندلسية التي ذكر جملة من شعرها ابن دحية في المطرب من أشعار المغرب، وبثنية ابنة المعتمد، وتقية ابنة أبي الفرج ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه وأخذت عنه العلم بالاسكندرية ونظمت القصائد الخمرية والحربية مبرهنة عن طول باع المرأة في كل ذلك، وحفصة بنت حمدون الأندلسية، وحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب، والشاعرة الشلبية التي كانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء والتي وجهت إلى يعقوب المنصور قصيدة تتظلم فيها من ولاة شلب، وعائشة القرطبية التي كانت تمدح الملوك وترتجل الشعر ارتجالاً، وروى ابن حيان أنها أعقل بنات عصرها، وعائشة الباعونية صاحبة القصيدة البديعية التي نظمتها على منوال تقي الدين بن حجة والتي درست في الشام ومصر وأجاز لها العلماء بالافتاء والتدريس ولها مؤلفات في الأدب والفقه وديوان شعر وكانت تكاتب الأدباء وتستفتي في المشاكل اللغوية والفقهية والإدارية وتجتمع بالملوك فتجد منهم آذاناً مصغية، وعائشة التيمورية، وعلية بنت المهدي أخت الرشيد، لها ديوان شعر، وعمرة ابنة الخنساء، والشاعرة الغسانية من شواعر الأندلس الموصوفات في المائة الرابعة، وفضل الشاعرة من مولدات البصرة ولبانة زوجة الأمين بن هارون الرشيد، وليلى الأخيلية، ومهجة القرطبية صاحبة ولادة بنت المستكفي الشاعرة التي كانت تناضل الشعراء وتجادل الأدباء وتفوق البرعاء، وكانت زوجة الفرزدق أديبة نقادة يحتكم إليها شعراء العصر، كما كانت مريم

بنت أبي يعقوب الأنصاري تعلم النساء الأدب ولا يخلو كتاب من كتب التراجم أو الأدب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية في مختلف الميادين.

وقد ساق كوستاف لوبون في حضارة العرب جملة من هؤلاء، من بينهن فاطمة التي كانت تنسخ للحكم الثاني والتي أعجب العلماء برسائلها في الفنون والعلوم، وخديجة الشاعرة، ومريم التي كانت تعلم بنات الأسر الراقية في أشبيلية العلم والشعر فتخرجت في مدرستها نساء بارعات، وراضية نابغة عصرها في القريض والقصص الرائعة والتي جالت في الشرق حيث كانت محط هتاف العلماء في كل مصر. وورد في «خلاصة الأثر»(١٠) أن بنت ابن الصائغ صارت شيخة للطب بدار الشفاء المنصورية بمصر بعد وفاة والدها.

ويذكرون من بين صالونات الأدب التي كانت مجمعاً لكبار المفكرين مجلس سكينة في الحجاز، ومجلس علية بنت المهدي، ومجلس الفضل في بغداد، ونزهون في غرناطة، وولادة بنت المستكفي، وتحدث ابن جبير عن مجالس العلم والأدب التي شاركت فيها المرأة بحضوره في القرن السادس.

وهكذا انفسح مجال العلم أمام المرأة المسلمة في مختلف العصور والأمصار، وقد أثار القلقشندي صاحب «صبح الأعشى» مشكلة الثقافة النسوية فقال «لم يرو أن أحداً من المتقدمين أنكر على النساء هذا الحق».

أما في الميدان العسكري فقد ذكر الطبري(١١) أن النساء كن يجهزن الجيش في حروب القادسية، وضربت صفية المثل الرفيع في البطولة الأولى للمرأة المسلمة(١٢) **وشهدت أم سليم والدة أنس ابن مالك المغازي كلها** (١٣)، **وشاركت أم عمارة مع زوجها في غزوة أحد وحرب اليمامة، وأصيبت اثنتي عشرة إصابة في غمرة المعارك. وصاحت خولة في جموع النساء بدمشق فأسقطن ثلاثين جندياً للعدو، ونقل إدوارد جيبن في تاريخه هذه الوقعة فقال «كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديراً بالإجلال والتقدير؛ إذ كانت المسلمات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمي السهام، واستطعن بتلك الخلال أن يحافظن على عفافهن في ظرف دقيق وموقف حرج». وفي موقعة اليرموك ثارت الغيرة والحمية في النساء فبرزن من**

خيامهن واقتلعن أعمدتها وحملن ما استطعن حمله من السلاح، وأنزلن بالعدو هزيمة نكراء. وذكر ابن الأثير أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم. وتقدمت جورية أخت معاوية بفرقة من النساء وأخذت تناضل في اليرموك حتى جرحت. وفي يوم التعوير (اليرموك) كانت أسماء بنت أبي بكر تقاتل إلى جانب زوجها الزبير بن العوام. وبارزت غزالة الحجاج فلاذ بالفرار. وكانت والدة أسامة وأخته تحاربان في الحروب الصليبية. وفي الهند قتلت رضية سلطانة الأسد بضربة من سيفها البتار، وكانت تتخذ زينتها من الأسلحة والدروع. وفي إحدى الغزوات نشر النساء خمرهن وجعلنها رايات وزحفن نحو العدو حتى ظن المشركون أنها نجدة وانهزموا(١٤). وكان لخزانة ابنة خالد حظ وافر من الأدب والفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص وخاضت معه المعامع وحضرت معركة الحرة، وكانت خولة الكندية تفوق الرجال فروسية وبسالة، وحضرت مزروعة الحميرية فتوح الشام ومصر مع خالد بن الوليد. وفي القرون الأخيرة أخذ نساء مصر العساكر الفرنسية إلى دورهن وقتلنهم ورمينهم في الآبار(١٥).

أما في الموسيقى والغناء فهناك المئات ممن كان لهن الباع الطويل والبراعة الخارقة، وقد ذكر معبد عن جميلة الخزرجية أنه لولاها لما كان هو وزملاؤه مغنين وكان يتحاكم إليها أهل الفن في مكة والمدينة والبصرة. وتعتبر عزة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز وألفت ألحاناً غريبة وفتنت أهل المدينة رجالاً ونساء.

ولم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الأمصار الإسلامية إلى يومنا هذا من نساء نافسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وصيانة. وقد يخيل للناس أن المرأة المسلمة انحطت في المجموع بالنسبة للمرأة الأوربية، ولكن مؤلف حضارة العرب الذي صنف كتابه عام ١٨٨٠ أكد «أن حالة النساء المسلمات في عصره كانت أفضل من حالة أخواتهن في أوربة»، وزادت النهضة الحديثة المرأة المسلمة شعوراً بمركزها الممتاز الذي خوله الإسلام إياها وقد ضرب المثل السامي نساء كن رمز النبوغ والطهر والعفاف أزيد من ثلاثة عشر قرناً، وقد ذكر صاحب «تخريج

الدلالات السمعية»(١٦) من ولاهن عمر من النساء أمر السوق. وذكر صاحب «العقد الثمين»(١٧) الشفاء وتوليها أمر السوق وتعليمها النساء الكتابة. وتولت قهرمانة لأم المقتدر المظالم فكانت تجلس يوماً في كل أسبوع(١٨).

هذا وقد لعبت المرأة المغربية دوراً بارزاً في المجتمع في مختلف مراحل التاريخ، وإذا لم يكن هذا الدور ناصعاً في كثير من الأحيان، فإنه لم يكن كذلك باهتاً، إذا لاحظنا أن الوسط النسوي المغربي الذي نبغت فيه عالمات شهيرات كان قبل كل شيء مدرسة للتربية ومعملاً اقتصادياً، فكانت المرأة ربة البيت وراعيته والمشرفة على الحقل والسوائم في البادية، والصانعة الماهرة في الحضر والوبر. وكانت المرأة في هذا وذاك محط احترام الرجل ومثار حبه إلا في النادر، بل إن بعض النساء أظهرن براعة إدارية ولباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لأزواجهن الأمراء والرؤساء، وساهمت المرأة كذلك بحظ وافر في الإسعاف ورصد الأوقاف للمعوزين وإقامة المعاهد، ويكفي أن تعلم أن جامع القرويين إنما أسسته فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبدالله الفهري عام ٢٤٥ هـ، بينما أقامت أختها مريم جامع الأندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالي القرن الرابع الهجري وصار بعد ذلك أكبر فروعها.

وقد نبغت في العهد الإدريسي الأميرة الحسنى بنت سليمان النجاعي زوجة المولى إدريس الأزهر الذي كان لا يفعل شيئاً إلا بموافقتها، وكانت إليها المشورة في دولته(١٩) وقد أشار محمد الكانوني في مخطوط له حول «شهيرات المغرب» إلى بعض من نبغ من النساء، فذكر عاتكة بنت الأميرة علي بن عمر ابن ادريس زوجة الأمير يحيي بن يحيي بن محمد التي كان لها أثر في مصير السياسة المغربية وخروج الدولة من بني محمد بن ادريس إلى بني عمر بن ادريس، وكان الناس قد قاموا على زوجها الذي مات بفاس غما، فاستنجدت هي بوالدها علي ابن عمر صاحب صنهاجة وغمارة وغيرهما من الريف المغربي، فجيش الجيوش وأخمد الثورة واسترجع فاسا عام ٢٨١ هـ. وقد ذكر صاحب المعجب(٢٠) أن في دولة الحموديين الأدارسة لم يثبت محمد بن ادريس إلا بفضل رباطة جأش والدته التي كانت تقوى عزيمته وتشرف على الحرب بنفسها.

وفي عهد المرابطين اشتهرت زينب النفراوية الهوارية زوجة يوسف بن تاشفين إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة، وبنى لها ابن تاشفين مدينة مراكش كما في «الاستبصار»، وكذلك تميمة بنت ابن تاشفين التي كانت راجحة العقل جيدة النادرة، جمعت ثروة أشرفت على إدارتها بنفسها، وكان لها كاتب تحاسبه. وقد لعبت قمر زوجة علي بن يوسف دوراً في سياسة الدولة وكان الأمير يدبر كل الشئون العمومية بإشارتها. وكانت حواء بنت ابراهيم المسوفي تقرأ وتحاضر بالأدب. كما كانت أختها زينب تحفظ جملة وافرة من الشعر. وكانت حواء بنت تاشفين من شهيرات نساء عصرها.

وقد قامت فانو بنت عمر بن بنتيان بدور خطير في الدفاع عن الدولة اللمتونية، فهي من البطلات التي يحق للمغرب أن يخلد ذكرهن، فقد استماتت في الدفاع بحد السيف، عن قصر الخلافة بمراكش، وناضلت نصف يوم قبل أن يستسلم اسحق بن علي ويدخل الموحدون الى العاصمة عام ٥٤٥ هـ، وقد أثار استبسال هذه العذراء اللمتونية إعجاب الموحدين في ذلك العصر.

وفي أيام الموحدين درست أم بنت القاضي عبد الحق بن عطية على ولدها وأخذ الناس عنها العلوم، وهي والدة أبي جعفر أحمد الأديب طبيب المنصور ولها تأليف في الوعظ والإرشاد(٢١). وقد درست زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن علم الأصول على أبي عبدالله بن ابراهيم امام التعاليم والفنون فكانت عالمة. وحفصة الركونية كانت أستاذة نساء دار المنصور بمراكش وكانت أديبة زمانها(٢٢) بل أستاذة عصرها(٢٣) وهناك أيضاً أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر طبيبة دار المنصور كانت تداوي نساء القصر وأطفاله وكانت تستفتى في الطب، ولها بنت هي ابنة أبي العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة، وورقاء بنت ينتان الفاسية الأديبة الشاعرة، وأم العلاء العبدرية نزيلة فاس كانت تعلم القرآن بغرناطة، وأمة العزيز السبتية لها أشعار رائقة، وأم العز العبدرية كانت مجودة بالسبع وروت عن أبيها صحيح البخاري، وزينب القرقولية سمعت على أبيها وكانت ضابطة متقنة وكانت زوجة عتيق الغساني نزيل مراكش، واغمات أستاذة في القراءات السبع(٢٤)، وأم المجد مريم بنت أبي

الحسن الغافقي الذي فتح مدرسة للغرباء في سبتة وحبس عليهم أول مكتبة بالمغرب قد درست الحديث ووصفها بالعجوز المسندة محمد بن القاسم السبتي في «اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سنى الآثار»(٢٥)، وخيرونة الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلالجي أمام أهل فاس في الأصول ولها ألف العقيدة البرهانية على طريقة الأشعري.

ونبغت في عهد المرينيين فاطمة وأم هاني بنتا محمد بن موسى العبدوسي وهما فقيهتان، وأم البين الفقهية جدة الشيخ زروق، وسارة الحلبية الفاسية وهي أستاذة شاعرة من طبقة عالية في الأدب وتوفيت بفاس حيث أجازت عبدالله بن سلمون ولها قصيدة أجابت بها ابن رشيد السبتي ومدحت في أخرى مالك بن المرحل. ومن النساء البارعات صفية العزفية السبتية وهي من فضليات نساء عصرها في العلم والصيانة، وصبح جارية الحكيم الجزنائي فيلسوف المغرب وطبيب وكاتب ديوان الإنشاء في دولة أبي الحسن المريني لقنها العربية فنظمت الشعر، وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي السبتي أجاز لها ابن رشيد عام وفاته ٧٢١ هـ(٢٦)، وأمة الرحيم السبتية أجاز لها جماعة، وأم قاسم زهرة جدة الأمام حسن المرادي الأسفي المعروفة بالشيخة.

ولم تكن المرأة المغربية في هذه العصور تختلف عن المرأة العربية في شجاعتها ورباطة جأشها لا سيما في الصحراء أو الجبال التي انبثق منها المرابطون والموحدون والمرينيون، وكانت قبائل بني مرين تخرج بجميع العيالات في الحرب كما وقع في الغزاة التي تقابل فيها أبو يوسف بن عبد الحق مع يغمراسن بن زيان في تلمسان، حيث برزت الجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجواري المولدات تقودها الرجال في أحسن زي وأتم جمال(٢٧).

وفي عهد الوطاسيين كان للسيدة الحرة صيت واسع في الميدان السياسي، فقد وردت ترجمتها مطولة في مجلة هسبريس (النصف الثاني لعام ١٩٥٦ ص ٢٢٢) وولدت هذه السيدة عام ٩٠٠ هـ ودرست العلوم على عدة شيوخ ويظهر أنها درست اللغة الأسبانية لأن والدتها لالة زهرة أندلسية تزوجت علي ابن راشد قائد شفشاون عندما كان يجاهد وهو شاب في العدوة، وبذلك كان

للسيدة الحرة نوع من الاستعداد للدور السياسي الذي لعبته، فقد تزوجت علي المنظري وانتقلت معه إلى تطوان، حيث وجدت وسطاً أندلسياً مثقفاً رقيق الحاشية كالذي ربيت فيه، وكان زوجها في نضال مستمر مع البرتغاليين في طنجة وأصيلا، وكذلك في سبتة، مما ساعد السيدة الحرة على لمس الدسائس السياسية التي كانت تحاك في ذلك العصر ضد المغرب، وعندما مات المنظري تزوجت مولاي علي بن عمر الحسني الذي ولدت منه(٢٨) بنتاً زوجتها لأحد حفدة المنظري الذي كان والده قائداً في تطوان، والذي عرفت كيف تنحيه لتجعل صهرها الشاب في منصبه وتستبد هي نفسها بالقيادة المطلقة في تطوان، وبالجهاد ضد المسيحيين، وكان لها بواخر تقرصن في الشواطىء الأسبانية، كما كانت لها علائق طيبة مع الأتراك وسلطان فاس، وفي عام ١٥٤١ تزوجت السيدة الحرة مولاي أحمد الوطاسي الذي تركها في تطوان وكلفها بالاتصال بالبرتغاليين، وكان لها تشاحن مع والي سبتة التي كانت تطمح هي إلى احتلالها بينما كان الوالي البرتغالي يطمع في تطوان لترويج منتجات بلاده داخل المغرب.

أما تمدين السعديين فقد تم على يد العريفة بنت بنجو التي لقنتهم مظاهر الحضارة الملوكية، لا سيما داخل القصور والبيوتات(٢٩)، وكان لمسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي عناية بإصلاح السبل وعمارتها، وتشييد الخانات بالأمكنة الخالية وبناء القناطر (أصلحت جسر وادي أم الربيع عام ١٠٠٠ هـ) وتجهيز اليتامى وتزويج الأرامل وهي التي أسست مسجد باب دكالة بمراكش عام ٩٦٥ وأوقفت عليه نحو سبعين حانوتاً وغيرها وأقامت بإزائه مدرسة للطلبة الغرباء ومكتبة وذخائر كتب على بعضها بخط يدها، والأميرة سحابة الرحمانية أم عبد الملك الغازي التي لعبت دوراً كبيراً في حمل الخليفة التركي على إصدار أمره لوالي الجزائر بمساندة ولدها على استرجاع ملكه بالمغرب عام ٩٨٣، وأم كلثوم بنت الشيخ بناصر قرأت الوغليسية في الفقه والبردة في السيرة. والنساء الناصريات في درعة متعلمات على وجه العموم ولا نطيل بسرد أسمائهن.

وفي العهد العلوي طار صيت الأميرة خناثة بنت بكار المغافرية زوج المولى اسماعيل فقد ذكر صاحب الجيش(٣٠) أنها حصلت العلوم، وقد كتبت على

هامش الإصابة لابن حجر، وكانت تصدر عنها ظهائر ومراسيم في بعض الشئون القبائلية في عهدي مولاي اسماعيل وولده عبدالله. وكان زوجها يستشيرها في بعض الشئون، وقد قال عنها الرحالة الإسحاقي أنها كانت لزوجها وزير صدق وبطانة خير.

ومن النساء العالمات عائشة بنت بونافع الفاسية والدة عبد المجيد الزبادي كانت تحضر مجالسه العلمية، والزهراء بنت محمد الشرقي زوجة اليوسي كانت شيخة فقهية أخذت عن زوجها بالإجازة جميع مروياته وأخذ عنها ابن أخيها اللغوي محمد بن الطيب الشرقي، وخديجة بنت عبدالله الحوات كانت تعلم النساء المنقطعات، وسكينة بنت السلطان مولاي عبد الرحمن كانت طلعة للكتب والدواوين، والفقهية فاطمة زويتين، وأم قاسم الحسناوية، ورقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الأديبة الفقهية العارفة بالعربية واللغة والتفسير والشعر والسيرة وأسرار الحروف والأسماء والتوحيد والبيان والصرف كان يدرس عليها الرجال والنساء مختلف الفنون ـ كما يقول الكانوني ـ وكانت في مجالس التفسير تتوخى أسباب النزول وعلوم القرآن وأنساب العرب والتاريخ، توفيت أوائل القرن الرابع عشر، وصفية بنت المختار العالمة في التجويد والتفسير والسيرة والنحو وكانت منتصبة للتدريس وهي شنكيطية، ومثلها ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمي التي كانت راوية للأشعار ومشاركة في العلوم، وأختها ربيعة التي كانت لها عارضة في الأدب والشعر نقادة للشعراء، وهند زوجة ماء العينين المشاركة في مختلف الفنون، وخديجة بنت الإمام محمد العتيق وكانت تبز في العلم عالمات عصرها، بل وكثيراً من علمائه، وقد نبغت في الشعر فتاة من شنكيط اسمها مريم كما في «الوسيط في أدباء شنكيط»(٣١).

وفي أوائل هذا القرن كانت العالية ابنة الطيب بن كيران تدرس المنطق في جامع الأندلس من وراء حجاب، وكان لها ضلع في مختلف الفنون، وإذا صدقنا رواية أحد طلبة القرويين الذين روى عنهم موليراس حوالي سنة ١٨٩٥م نلاحظ أن غالب نساء فاس كن قارئات لهن إلمام بالأدب، خصوصاً قصائد الإمام الغرناطي، وكان النساء يحضرن دروس العالية بعد العصر والرجال وقت الظهر، وقد أورد السخاوي(٣٢)

عشرات من النساء الفاسيات. ولا نكاد نحصي الأستاذات أو النسوة المثقفات اللواتي كن يعشن في حواضر المغرب وبواديه.

الهوامش:

(١) حضارة العرب: ص ٤٨٨.

(٢) البلاذري ص ٤٥٨.

(٣) الجزء الرابع: ص ٤٢٤ ـ ٩٨٤.

(٤) ميزان الاعتدال: جـ ٣ ص ٣٩٥.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء: جـ ٥ ص ١٤٠ والنعيمي: جـ ١ ص ١٠١.

(٦) الوفيات: جـ ٢ ص ٢٥١.

(٧) المجلة الأسيوية سنة ١٩٣٠ ص ٥٠.

(٨) ياقوت: جـ ١ ص ٢٤٧، صلة ابن بشكوال: جـ ١ ص ١٣٣.

(٩) كامل ابن الأثير: جـ ٠١ ص ٢٦.

(١٠) جـ ١ ص ٢٠٤.

(١١) جـ ٦ ص ١٧، ٢٣.

(١٢) ابن الأثير.

(١٣) أسد الغابة.

(١٤) كامل ابن الأثير: جـ ٢ ص ٢٠٧.

(١٥) رسالة نقولا الترك ص ١١١.

(١٦) ص ٢٧٥.

(١٧) جـ ٤ ص ٤٦١.

(١٨) صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ص ٧١.

(١٩) الدرر السنية ص ٨.

(٢٠) ص ٤١.

(٢١) ابن عبد الملك: التكملة.

(٢٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص ١٦٥.

(٢٣) ابن الخطيب: الإحاطة.

(٢٤) ابن عبد الملك: التكملة.

(٢٥) ص ٥.

(٢٦) أزهار الرياض.

(٢٧) الذخيرة السنية ص ١٤٦.

(٢٨) وهم كاتب المقال فاعتقد أن الست الحرة وعائشة أم ابن عسكر شخصية واحدة وهو خلاف ما يفهم من ابن عسكر في «دوحة الناشر» (الطبعة الحجرية ص ١٩ وقد نبه على هذا الغلط صديقنا الأستاذ محمد داود في «مختصر تاريخ تطوان» (ص ٣١).

(٢٩) تاريخ الدولة السعدية ص ٢٥.

(٣٠) ص ١٠٥.

(٣١) ص ٣٣٧.

(٣٢) الضوء اللامع: ج ١٢.